مسألة كرامة : هكذا قالت العاهرة

ظل العامة يرقبون قيام الصفوة بنهب أرزاقهم ويتأملون القرصنة التى تحدث فى المحيط الأعلى وهم صامتون يتميزون غيظًا، وعندما انفجروا يومىْ ١٧ و ١٨ يناير ١٩٧٧ أثبتوا أن الغضب المكبوت لا حدود لانفجاره.

وتعجب أشرف بركات لأن عرش الحكم اهتز فى هذين اليومين بيد الشعب عكس ما حدث يومى ٩ و ١٠ يونيو ١٩٦٧ عندما حالت هذه اليد دون اهتزاز عرش عبد الناصر. وقال حلمى عبد الباقى فى مقاله الأسبوعى:

«لا تنخدعوا فى هذا الجمهور؛ إذ بدا لكم مستسلمًا خانعًا يلوذ إلى النكته، فأقل ما يمكن أن تتأملوه هو المغزى الكامن فى كل نكته يطلقها هذا الشعب المسروق لتتأكدوا أنه حتمًا سينفجر طالما أن النكته لم تعد تشفى غله وغليله»

ولما جاء مقاله التالى ساخنًا بأكثر مما يجب وشامتًا فى النظام الذى تراجع مذعورًا عن قراراته الاقتصادية قالت له خميسة:

ـ «خفف الوطأ.. ليست رحمة بهم، ولكن رحمة بصحيفتك المعارضة التى قد يغلقونها بسببك..»

أما الشيخ فريد هنيدى فقبل أن يسحبوه إلى نومته المعروفة كان قد أطلق آهاته الحّرى إلى عنان السماء طالبًا الرحمة لهؤلاء الذين ماتوا برصاص الشرطة من المتظاهرين فى الشوارع، وطالبًا القصاص من رأس النظام مؤكدًا أن حاكمًا يطلق النار على أبناء شعبه هو حاكم فاقد لشرعيته، ولا يليق به أن يبقى يومًا واحدًا فى سدة الحكم.

واختبأ السيد النحّال داخل نفسه وأوصى فتيان فتيان أن يبتعد عن مسار العاصفة إلى

أن تهدأ، ولما علما أن الشيخ فريد هنيدى يحل ضيفًا فى معقله بنيابة أمن الدولة حمدا الله على هذا الحال..

ولأنه كان من اللازم أن يبحث النظام عن حقن مسكنّة لآلام الشعب فإن فضح وتجريس بعض صغار اللصوص قد يوهم الناس أن هذا النظام ينظف ساحته من القاذورات ليبدأ عهدًا جديدًا من النقاء والشفافية، لا سطو فيه ولا تربح ولا متاجرة بمصائر الفقراء.

ولأن حامد شبراوى فقد منصبه بعد أن فقد النطق والحركة، فقد سارع أمير النحّال من خلال أسياده عسس النظام إلى الإشارة إلى «**فُحش ما كان يحصده هذا الرجل من أموال وثروات نهبها من شركة المقاولات المتحدة التى تحولت على يديه إلى عزبة، كأنما ورثها عن والده..**»

كان هذا ما جاء من قول فى شكوى من مواطن وهمى إلى إدارة الكسب غير المشروع ثم من دليل آخر جاء بشكوى أخرى من مواطن جديد يفرد بالتفصيل حجم مسروقات حامد شبراوى أثناء إقامته مستشفى استشماريًّا لنفسه على كورنيش النيل بالمعادى من أموال الشعب.

ولم يدرك أحد إلا عند التحقيقات أن أمير النحّال ترك دليلًا ماديًّا فى فناء المستشفى عند بنائها يثبت لمن يهمهم الأمر أن حامد شبراوى سرق كل أموال هذا البناء من شركته.

فالبرج الميكانيكى الدوّار العملاق الذى يرفع مواد البناء لطوابق المبنى هو من ممتلكات شركة المقاولات المتحدة ومازال رابضًا فى فناء المستشفى حتى الآن بعد أن استعصى على المهندسين أمر تفكيكه وإعادته إلى الشركة. يومها قال أمير للمهندسين:

«**اتركوه.. سأسوى حالته فى قوائم الأصول الثابته للشركة**».. ثم قال لسيده وقتها «**سأرتب لك فاتورة شراء مصنوعة تحمى ملكيتك لهذا البُرج كأنه آل إليك بالشراء من متزايد حصل عليه فى مزاد من مزادات الشركة**».

وهلل حامد شبراوى يومها لعقلية رجله الأثير، ثم نسى أمر الفاتورة التى تناساها أمير..

وفى مسلسل فضح اللصوص والإمساك بالقطط السمان أبدع أمير النحّال فى فضح رئيس شركته السابق، وألهى اللجان عن الاقتراب من تصرفاته المماثلة، وثروته الماثلة.. وبداخله رعدة خوف أن يزج أحد باسمه إلى إدارة الكسب غير المشروع.

* * *

قفز مسرعًا إلى ضيعته الهانئة بالخطاطبة، ومن الفيلا الأنيقة أرسل فى طلب المهندس المسئول رأفت إبراهيم عبد الواحد.

جاءه رأفت هادئًا مؤدبًا ووديعًا فوجده فى صحبة رجل سمين سبق له أن رآه مع ضيوفه الكُثر الذين لا ينقطعون عن زيارات اللهو والمرح وحفلات الشواء بالمزرعة.

ـ «اجلس يارأفت..»

هكذا دعاه بصوت حنون، ثم لاحقه بصوت أحن:

ـ «ألم تلاحظ يا رأفت أنك تعمل هنا منذ أكثر من عامين دون أن تكتب عقدًا بالعمل مع صاحب هذه المزرعة؟..»

احتار رأفت فى الإجابة، لكنه قال على سبيل المجاملة:

ـ «ليس بينى وبينك ما يدعونى أن أضمن حقوقى بورقة»

فقال أمير مسرعًا: «هذا إذا كنت أنا صاحب المزرعة.. هذا هو صاحبها الحقيقى..» وأشار إلى مرافقه.. «الحاج إبراهيم الصعيدى.. رجاله الآن فى الخارج يضعون لافتة على البوابة بالاسم الذى اختاره: جنة أبناء الصعيد».. اسم عجيب، أليس كذلك؟.. هو حر: من حكم فى ماله ما ظلم.. على كل حال هذا هو العقد الذى يجب أن توقعه مع الحاج إبراهيم منذ بدء عملك معه..»

وفتح حقيبته الأنيقة وسحب منها نسختين لعقد ممهور مقدمًا من الطرف الأول إبراهيم عطا محمد حامد الشهير بإبراهيم الصعيدى.. والمهنة صاحب شركة العطا للمقاولات العامة والتوريدات ودفعه إليه ليوقعه.. فوقّعه..

لم يفهم رأفت شيئًا منذ أن خرج من الفيلا وبيده نسخته من العقد، وفى حجرته الصغيرة انتابته كثير من الهواجس التى كثيرًا ما ينفرد بها وتنفرد به ولا يطلع عليها أحد ما

عدا زوجته نادية التى يسرب إليها من آن لآخر بعض هذه الهواجس..

فنادية التى تزوجها منذ ثلاثة أعوام جربت الحياة معه لما يقرب من العام بمرتب الحكومة الهزيل، فتعلمت معه فكرة ربط الحزام حتى يمر الشهر بسلام، ولما جاءه خطاب على عنوانه بالبلد أرسله إليه أمير النحال طالبًا منه أن يسافر لمقابلته فى العاصمة لم يكن صديقه فريد هنيدى بجواره ليبلغه بأمر هذه المقابلة المطلوبة التى عاد منها بمشاعر تجمع بين الفرحة والاضطراب..

أطلع زوجته التى لم تكن من بنات القرية على شخصية أمير النحال، وبعد أن جمعت نادية بين يديها صورة رجل يختلف تمامًا عن زوجها فى خلقه وقيمه ومبادئه سألته:

«وفيم كان يريدك؟»

ـ «يريدنى أن أعمل عنده .. راعيًا لمزرعته».

ـ «وهل وافقت على أن تعمل عنده؟»

خبا بريق الرضا فى عينيه وقال بصوت مكسور:

ـ «المرتب الذى سيمنحه لى جعلنى أوافق.. لكننى ندمت على ذلك طوال الطريق.. فسوف يقاطعنى الشيخ فريد هنيدى إذا عرف منى هذا الخبر، لأننى أحصل على مرتبى من مال حرام؟»

وأخرجته نادية من عذاب هواجسه:

ـ «لا تقل للشيخ فريد، ولا لأىّ أحد، واستفت قلبك.. وجرب هذا العمل لعام أو أكثر، وتذكر أنه قد يلهث الآلاف خلف هذه الوظيفة إذا رفضتها أنت؛ لأنهم لن يفكروا بنفس طريقتك».

* * *

والآن يجب أن أعترف للشيخ فريد بالمكان وصاحب المكان الذى أعمل به منذ أكثر من عامين.. كان صاحبه أمير النحال حتى ساعات قليلة مضت.. والآن صاحبه الحاج إبراهيم الصعيدى.. فكيف ذلك؟.»

* * *

وبوجه مشدوه تساءل الشيخ فريد:

ـ «خمسمائة فدان؟.. يااه؟.. أمير؟»

فأعاد عليه رأفت المسميات الأخرى:

ـ «وفيلا.. وحمام سباحة، وتعريشة للشواء والسهر..»

ثم يصمت الشيخ فريد ويعاود أسئلته:

ـ «وكيف تحملته طوال هذين العامين؟»

أثنى رأفت بينه وبين نفسه على سؤال صديقه:

فقد كان يجب أن يكون سؤاله الأخير هكذا: «وكيف تنكر عليّ هذا الأمر طوال هذين العامين؟»

ولكن لأنه فريد بكل ما بنفسه وروحه وعقله من نبل شديد فقد تغاضى عن لومه لأنه كتم عنه حقيقة أنه يعمل عند أمير النحال.. فمن المؤكد أن الشيخ فريدًا التمس لصديقه العذر وألبس ما فعله ثوب العمل بالنصيحة النبوية «استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان» ثم أوْلى اهتمامه شيء آخر:

«كيف تحملته؟»

ورأى رأفت أنه سؤال حصيف ينطوى على رؤية ثاقبة لخص به الشيخ فريد حجم المفارقة والهوة السحيقة بين رجلين كلٌّ منهما لا يمت للآخر بصلة، ومع هذا فقد اجتمعا على هدف واحد وفكرة جامعة، وراحا يطاردان الهدف والفكرة كل بطريقته فى خلاء الحياة الذى أسماه أمير النحال: «المزرعة..»

ـ «المزرعة يا شيخ فريد لخصت لى الدنيا كلها داخل حدودها الأربعة. فإن رمت فكرة الإعمار والإنبات والإثمار فهى هناك، وإن رمت فكرة اللهو والعيث والقناطير المقنطرة من الذهب والفضه فهى هناك، لكنك تعثر دائمًا على فكرة الغرور والتفاخر الذى سوف يقتل صاحبه، ثم تتذكر ذلك الواهم الذى دخل جنته وقال لنفسه: ما أظن أن هذه تبيد أبدًا. أمير النحال يا شيخ فريد أهاننى ذات ليلة عندما قلت له: «قل إن شاء الله..» وكان لحظتها يصيح فى واحد من العمال آمرًا:

«لا بد أن تفعل كذا فى الصباح».. فى هذه الليلة أفرغ يده من العامل واستدار إلىّ وراح يؤنبنى على هذه الملصقات العالقة بعقلى.. وانتهى إلى تذكيرى بما صرت إليه قياسًا بما صار هو عليه.. وعزا السبب إلى تعلقى العبيط بمكتسبات عفا عليها الزمن.. «انس أبى وأباك.. اتركهما فى غيبوبة الفقر وقلة الحيلة.. أو ابحث لهما عن متحف يليق بهما»

وفى ليلة سوداء أخرى نفد الخمر وتطلب الأمر أن يسرع أحد السائقين إلى الإسكندرية لابتياع بعض منه لإكمال سهرة رأس السنة التى أعدوا لها عدة لا يرقى الخواجات إلى مثلها...

كنت فى غرفتى كالعادة لا شأن لى بحفلاته وطعامه وشرابه وضيوفه بعد أن عاهدت نفسى ألا أقرب شيئًا من ذلك...

أرسل فى طلبى، ذهبت إليه متثاقلًا وقرفانًا.. لاحظ هو ذلك من بؤس ملامحى.. ثم لاحظ ما طرأ على وجهى من تغير إثر تعرفى على المهمة العاجلة التى طلبنى من أجلها:

ـ «ستذهب مع الأسطى محمد إلى محطة الرمل ـ شارع صفية زغلول...»

قاطعته قبل أن يُكمل التوصيف فقد سمعته من قبل يصف محلًا بهذا الشارع لبيع الخمور.

ـ «لا تكمل يا أستاذ أمير.. الأسطى محمد يذهب بمفرده.. لن أبتاع لك خمرًا...»

ـ «لماذا يا باشمهندس.. حرام؟»

ـ «لا حرام.. ولا حلال.. كرامتى لا تسمح لى..»

كان مخمورًا، ومع ذلك فقد تمكن من تلقينى درسًا قاسيًا فى مسألة الكرامة هذه، فقال إننى ذكرته بامرأة عاهرة أتى بها لنفسه ثم أرادها رفيق الجرسونيره لنفسه أيضًا فسمح له بها.. وأبت العاهرة أن تُصبح هديته لرفيقه:

ـ «لماذا يا حلوة؟»

ـ «أنا ما جئت إلا لك، ولن أكون لصديقك..»

ـ «ولماذا يا حلوة؟..»

ـ «بدون لماذا.. إنها مسألة كرامة..»

تصور يا شيخ فريد؟.. الملعون شبهنى بالعاهرة.. هل لأننى أعيش أنا وزوجتى بالمرتب الذى أتقاضاه منه، ثم أرفض بعض التعليمات التى يصدرها إلى..؟..

فغمغم الشيخ فريد:

ـ «يريدك أن تعمل بالمثل القائل من يأكل طعام اليهودى يحارب بسيفه.»

ثم رفع صوته قائلًا:

ـ «عد إلى عملك الحكومى وإن كان فى نظرى قريب الشبه بعملك عند ابن النحال»

ثم أسداه نصيحة لا بد منها:

ـ «ولا تنصرف من عنده تاركًا خصومة خلفكما.. النحالون غدّارون.. لن يتوانى عن تدميرك مثلما دمر نجيب أمين النجار فأنت اطلعت على أسراره ومخازيه، وهذا يتطلب أن تظل خادمًا عنده مدى الحياة.. فهل ستقبل ذلك؟»

وأطرق رأفت متأملًا كلمة «خادمًا عنده» التى قالها فريد بعفوية ووجد أن أمير النحال لا يعامله إلا من هذا الموقع، ووجد أن أهون ما رواه لصديقه الآن هو أهون ما أهانه به أمير، ووجد أنه تحمّله بأكثر مما يقوى عليه حفاظًا على رزقه ومرتبه العالى الذى يشقى به ليل نهار .. ففى مسلسل صراعه المقيم مع فكرة الادخار لمواجهة نوائب الزمن لم يتمكن من تحقيق ذلك إلا من مرتب ابن النحال، يكفى أنه لم يتمكن من الزواج إلا وهو يقترب من الخامسة والثلاثين، ولم يفعل ذلك إلا تحت إلحاح والده وظهور زوجته ناديه عز الدين العاقلة المُدبرة التى تقبض معه على جمر الدين والعيش الحلال.

وأفاق من تأملاته على صديقه يواصل نصائحه:

ـ «اطلب نقلك من دمياط إلى هنا .. عش معنا هنا يا رأفت، ما جدوى غربتك؟. تارة هناك وتارة فى الخطاطبة.. لا تسأم الحياة وحدك بعيدًا عنا.. دعنا نسأمها معًا.. جمهور مسجدى بالإسكندرية ملأ وقتى وحياتى، ومع هذا فأنا أصبو للعيش هنا.. أتدرى لماذا؟.. لن نجد مكانًا يبادلنا الحب مثل هذه القرية التى ولدنا بها ونشأنا فيها..»

وتسرى رعشة ما فى وجدانه، أجل.. فما يقوله فريد هو الحق بعينه.. لن نجد الحب إلا هنا.. لأنه نشأ معنا هنا.. **«أبى وأمى وليلى وطاهر والريس عفيفى وخميسة والنوايا**

البريئة..»

ويتساءل رأفت أمام صديقه: «ولماذا لم يصل هذا الحب إلى ولديْ النحّال يا فريد؟»

ـ «ولن يصل، فقد حلت محله النقمة، السيد النحال ظل يواريها حتى جاء ينشد الحب المفقود ليجلس به على كرسى البرلمان. وغدًا.. غدًا سوف ترون كيف سيكون عندما تعود النقمة إلى مكانها المختار فى قلبه..»

ويتذكر صديقه طاهر زين الدين عندما رفض العودة إلى أرض هو يحبها ويعشقها، وقال له ولفريد فى محل تريانون:

«لن أعود» وكان السبب أن هناك قهرًا فى انتظاره.

ثم تذكر خميسة عفيفى التى فرت تاركة خلفها أرضًا أحبتها وبلدًا عشقته ودكانًا كادت أن تدفع مستقبلها ثمنًا للحفاظ عليه ثم أبت أن تعود.. وكان السبب أن هناك فضيحة فى انتظارها..

وأيقن رأفت إبراهيم أن المكان كائن يتنفس ويحس ويشعر ويعطى الحب ثم يأخذه ويمنح الأمان ولا يأخذه، وعدا هذا فهو سجن كبير بلا قضبان..

ـ «والخطاطبة يا رأفت صارت كذلك.. فلتغادرها بكرامتك التى وضعها أمير الحقير فى سطر واحد مع كرامة العاهرة..»